شرارة آذار

دعوة للتفكير بصوت مرتفع

INFOSHRARA@GMAIL.COM

العدد ٨٤ ٢٢/٩-٢٨/٩/٢٠١٣

موت الفلسطيني والسوري واحد

السوريون يستعيدون فردانيتهم

نساء بين سقف وسماء

أنتم وسخون

الحرب تفكك المجتمع

الصراع

"على" سوريا

د. احمد برقاوي

منذ تحقق اتفاق سايكس-بيكو في بلاد الشام والعراق لم ينقطع شكلا الصراع عن الحضور اقصد "الصراع على" و"الصراع من اجل".

الصراع على المنطقة بين قوى عالمية على احتكار النفوذ وصراع قوى داخلية من اجل ما يجب ان تكون عليه المنطقة في الصراع.

المنطقة ضاعت فلسطين والاحواز وماردين واسكندرون وتأكد التقسيم الذي انجزه الاستعماران الفرنسي والبريطاني وفي "الصراع من اجل" ثار الشعب من اجل الاستقلال والحرية ومازال هذا الصراع قائما.

لكن" الصراع على" يحتاج الى اطراف داخلية تكون جزء من "الصراع على" تلبس قناع" الصراع من اجل".ودول النفوذ كلما رأت حالة صراع من اجل تدخلت كي تمنع الارادة الداخلية من الاستقلال. هذا الامر يؤكده ما حصل ويحصل في فلسطين ولبنان وسوريا والعراق.

إذا طبقنا هذا المنهج في التحليل على ما يجري في سوريا نجد ما هو آت،

الأصل أن هناك ثورة انفجرت في سوريا ضد نظام سياسي لم يعد الشعب قادرا على تحمله اطلاقا. اي نشأ صراع من اجل سوريا في صورة ثورة.بالمقابل ما ان انفجرت الثورة من اجل سوريا حتى تداعت قوى الصراع على سوريا. الغرب امريكا من جهة روسيا الصين ايران من جهة ثانية.

في الوقت الذي كان فيه احد طرفي الصراع ،روسيا الصين إيران مطلق الدعم للنظام بوصفه النظام الذي يؤمن النفوذ لهذا الطرف كان الغرب وامريكا طرفا خائفا من نتائج الثورة وخاصة على "اسرائيل" بوصفها ثورة من اجل. ولهذا سعى جاهدا ليحول الصراع فقط الى صراع على سوريا وكان النظام ذا مصلحة في ذلك لانه يعمل بذهنية الصراع على سوريا وليس من اجل سوريا.. وهذا الذي يفسر تدمير المدن والقرى والقتل ورفض التنازل عن السلطة او جزء ولو ضئيل من السلطة من اجل تحقيق حياة طبيعية في سوريا.

واخطر ما في الامر ان ظهرت قوى مقاتلة من الخارج والداخل تخوض صراعها على سوريا وليس من اجل سوريا كالنصرة و دولة الشام والعراق.

وهكذا ففي الوقت الذي تبحث فيه الثورة عن دعم لها من اجل سوريا

تعمل القوى المطالبة بالدعم بمنطق الصراع على سوريا. لان الثورة من اجل سوريا هي خطر على كل الاطراف التي تفكر وتسلك وفق منطق الصراع على سوريا.

وهذا الامر يتطلب من الثورة صبرا وحنكة وقوة لتبقي على طريق الكفاح من اجل سوريا مع الاقرار بصعوبة هذه المهمة.

سلطات اقتصادية جديدة

سلام السعدي

تبددت تلك الأيام التي كانت فيها السلطة السورية هي المرجعية الحصرية لكل التعاملات الاقتصادية في البلاد. ففي الوقت الذي تراجعت فيه قوة الدولة، وانحسرت مواقع نفوذها، إكتسبت المناطق الخارجة عن سلطة النظام إستقلالا أكبر على المستويين السياسي والاقتصادي، وباتت تتجه الى إنتاج إقتصاد مستقل بعلاقاته التجارية مع العالم الخارجي.

حالة موت وضمور السلطة الرسمية، في مقابل ولادة سلطة بديلة، تتبدى بوضوح على المستوى التجاري. إذ أن المناطق المحررة، وبرغم الإنتهاك اليومي الذي يطالها من قبل مدفعية وطائرات النظام، إستطاعت تنمية التعاملات التجارية مع الخارج، في حين ضمرت تلك التعاملات بالنسبة لـ"الدولة" القائمة.

ووفقا لـ"هيئة تنمية وترويج الصادرات" الحكومية، فقد شهدت التجارة الخارجية السورية تراجعا حادا وغير مسبوق، يكاد يصل بالنسبة للصادرات إلى ١٠٠ في المئة، إذ سجلت الصادرات في العام ٢٠١٢ انخفاضا بنسبة ٩٧،٤ في المئة، فيما انخفضت الواردات بنسبة بلغت ٧٨،٤ في المئة .

يعود التراجع الحاد في حجم التجارة الخارجية إلى رد الفعل العنيف للنظام السوري على الاحتجاجات الشعبية في سوريا، وفضلا عما أحدثته حرب النظام من دمار واسع للمنشآت الاقتصادية، أحدثت توترا غير مسبوق في العلاقات مع معظم دول الجوار، خصوصا ان الشراكة التجارية للنظام السوري، تركزت في العقد الأخير مع دول باتت مصنفة بالنسبة له في خانة "العدو" مثل تركيا والسعودية وأوروبا.

كما ساهم "إقتصاد الحرب" الذي إعتمده النظام، في تراجع حجم التجارة الخارجية. إذ أن النظام، وقد بات حذرا تجاه استنزاف الاحتياطي النقدي، ومهتما بتأمين السلع الأساسية في مناطق نفوذه، منع تصدير واستيراد بعض المواد. وعلى سبيل المثال أصدرت وزارة الإقتصاد في منتصف شهر آب الماضي قرارا بإيقاف تصدير الخضار إلى الأسواق الخارجية حتى نهاية العام الحالي ٢٠١٣، بهدف تأمينها في السوق المحلي بأسعار معقولة. كذلك هو الحال مع مواد وسلع أخرى تم منع استيرادها، كالسلع "الكمالية"، والمياه المعدنية المعبأة لمساعدة "الشركة العامة لتعبئة المياه"، وهي شركة حكومية، في تسويق منتجاتها وتعزيز مبيعاتها.

في المقابل، إنتعشت التجارة الخارجية مع تركيا في شمال سوريا. فمع توقف عجلة التجارة الرسمية، برز نظام تجاري بديل لتلبية الحاجات المتزايدة لملايين السوريين القاطنين في تلك المناطق. هكذا، غزت المواد الغذائية والمشروبات والألبسة والمنظفات والكهربائيات وحتى السيارات، مدينتي حلب وإدلب، حيث افتتحت عشرات الأسواق

التي غصت بالبضائع التركية.

كانت فرصة سانحة، استغلها بعض التجار السوريين والأتراك لتأسيس شركات في تركيا تدير العمليات التجارية وتعمل على تنظيمها وتوسيع حجمها. ووفقا لصحيفة "الصباح" التركية، افتتحت مكاتب مسجلة في محافظات هاتاي، عثمانية، وكيليس التركية، وهي تعمل على مدار الساعة. وتنقل الصحيفة على لسان رجل أعمال تركي في محافظة كيليس، أن انتعاش التجارة غير الرسمية جاء من خلال قنوات خاصة، وكان ضرورة ملحة لتلبية حاجات السوريين في ظل الحرب والحصار. كما تحدث عن خطورة هذا النوع من التجارة والمشكلات اللوجستية التي تعترض عملهم، مثل سرقة الشاحنات أو إحراقها، إذا لا يغطي التأمين تلك الخسائر، وقال أيضا ان المعارضة تساعد في حماية وتسهيل العمليات التجارية.

يتذبذب حجم التجارة الخارجية بين تركيا والمناطق المحررة، لكنه ينمو بوتيرة مرتفعة. فوفقا لاتحاد مصدري جنوب شرق الأناضول، فإن صادرات المنطقة الجنوبية الشرقية من تركيا إلى سوريا، نمت بما يتجاوز ٦ أضعاف خلال الربع الأول من العام الحالي ٢٠١٣، مقارنة مع الفترة نفسها من العام الماضي، وسجلت ٧٦،٥ مليون دولار خلال ٣ أشهر فقط، مقابل ٦٣ مليون دولار في العام ٢٠١٢ كاملا .

وتذهب تقديرات إلى أن حجم الصادرات التركية إلى أسواق الشمال السوري أكبر مما هو مسجل. ويشير الناشط في مدينة منبج التابعة لمحافظة حلب، عاصم محمد، إلى أن "نسبة لا بأس بها من الصادرات لا تأتي عبر شركات مسجلة، وإنما عبر تجار جدد على الجانب التركي والسوري". ويقول محمد لـ"المدن"، "إن كتائب في الجيش الحر، وبعض السكان، باتوا جزءا من تلك العمليات التجارية". ويتوقع أن يكون حجم الصادرات إرتفع بصورة كبيرة خلال النصف الثاني من هذا العام، إذ "تتدفق يوميا عشرات السيارات المستعملة القادمة من أوروبا الشرقية عبر تركيا، وتباع دون لوحة أرقام وبأسعار مغرية، هذا فضلا عن الإسمنت ومواد البناء والتجهيزات الكهربائية وقطع الغيار الصناعية".

ولا يخفي محمد استياءه من "الفوضى التجارية" في شمال سوريا. ويعتقد أن "التحدي الاقتصادي الأبرز الذي يواجه المجالس المحلية هناك، هو تسجيل التعاملات التجارية، وحماية الشاحنات والتجار، فضلا عن العمل على توسيع النشاط التجاري بما يوفر مزيدا من السلع وفرص العمل".

عسكرة الثورة ضد "داعش"

نذير رضا

الحراك السوري المعارض على وسائل التواصل الإجتماعي، بات يشمل كل "خصوم الثورة". الخصم، من وجهة نظرهم، لم يعد الآلة العسكرية للنظام السوري وحدها. فقد خلقت الأحداث "دولة العراق والشام الإسلامية". ومع بدء الاشتباكات بين الجيش الحر والتنظيم المتشدد، أعاد التاريخ نفسه الى شهر تلى الاحتجاجات في سوريا. اليوم، يعبر السوريون عن رأيهم تجاه خصم جديد. يقارعونه، يهاجمونه، يلومونه، ويدعونه الى تغيير وجهة بندقيته. أكثر من ذلك، يصوتون ضد وجوده على موقع "فايسبوك".

على مدار ثلاثة أيام، إستفتت صفحة الثورة السورية على موقع التواصل الإجتماعي "فايسبوك" السوريين على تواجده. جاء السؤال ملطفا، بحكم محدودية سيطرته، ومحدودية الاشتباكات. السؤال "اللطيف"، كان شبيها باستفتاءات السوريين إبان أشهر الثورة السورية الأولى. جاءت النتيجة صادمة، ٨٦ في المئة من المشاركين، يرفضون تواجد دولة العراق والشام الإسلامية التابعة لتنظيم القاعدة. إعتبر هؤلاء أن أعمالها لا تصب في مصلحة الثورة السورية والسوريين، فيما أيد ذلك التنظيم ١٤٪ فقط من المشاركين.

كان السؤال محدودا، "هل تعتقد أن محصلة أعمال الدولة الإسلامية في العراق والشام تصب في مصلحة الثورة السورية، وفي مصلحة السوريين؟" كما كانت الإجابات بسيطة. تتطلب "نعم" أم "لا". هذه المسألة، لا تحمل إجابات أكبر. يظهر الرقم إستياءا عارما من سلطة الإسلاميين. من سلوكياتهم "المسيئة للثورة". وهي، على أي حال، مسيئة للحراك المدني السوري الذي قام منتفضا على نظام الرئيس السوري بشار الأسد.

لا يمكن فصل هذه النتيجة، عن مخزون ثقافي شكلته صور تظهر قساوة الإسلاميين المتشددين، ففي مقاطع الفيديو، صور عنيفة. قتل، بطش، قطع رؤوس، إعدامات ميدانية... كلها جرت على خلفيات دينية. وإزدادت دلالاتها خلال الأسبوع الأخير، بعبارات "منفرة" تجاه المعارضين. أهمها إطلاق إسم "تلي الخبيث" على معركة "طرد الجيش الحر" من مدينة الباب، شمال حلب. زاد الاحتقان ضمن الجسم المعارض الواحد.

لكن نتيجة الإستفتاء، لا يمكن الإعتماد عليها للقول إن المتشددين جاؤوا من عالم مختلف. هم فعلا موجودون. يؤيدهم ١٤ في المئة من المستفتين، والاف البسطاء الذين يؤيدونهم عاطفيا، ولا يجيدون إستخدام مواقع التواصل الإجتماعي. هم حالة منتشرة، بدأت تتمخض من مسارات الثورة، وأمدها الزمني الطويل في مناطق غابت عنها سيطرة النظام، وفشلت المعارضة من تنظيمها.

وفي المقابل، لا يمكن إستبعاد دلالات النتيجة الرافضة للمتشددين. العلمانيون، أو المعارضون الذين يجيدون إستخدام الإنترنت، يرفضون أسلمة الثورة. هذا الوجه المعتدل في المعارضة، لا يزال له صوته. يقول، ويبدي رأيه، حتى لو كانت فعاليته الميدانية غير مؤثرة.

ويأتي الرفض للتنظيم المعروف باسم "داعش" (اختصار للدولة الإسلامية في العراق والشام)، لنتيجة لخوف متواصل. القلق الوجودي من الأسلمة الراديكالية، أثار هذا الجانب. نعم، السوريون يخافون. خوف المعارضة تضاعف. كان النظام مركزا للخوف باعتقالاته وقمعه. أما الخوف الآن، فهو ناتج عن التصفية الجسدية العلنية باسم الدين. مقاطع الفيديو للإعدامات الميدانية، والحرق وقطع الرؤوس، دليل على ذلك.

وفي مقابل الإكتفاء بالاعتراض على وجودهم، هناك من يدعوهم للرحيل. صفحة "داعش لا تمثلني"، على فايسبوك، دليل إضافي. إنتقادات بالجملة، يشكل الناشطون رأس حربتها. وصلت في صفحة "شباب حلب – أعزاز" الى حد القول، "إذا تطبيق الشريعة الإسلامية سيكون لقتل أهلنا فلا نريده، وليكفرني من يكفرني".

لا يزال الرفض لـ"داعش" إفتراضيا، كما في الأسابيع الأولى للثورة السورية. حصلت بعض الاشتباكات المحدودة، وتنقلت بين مناطق نفوذهم، لكن توسع رقعة الخوف، لن يبقي التعبير عن رفضها على مواقع التواصل الاجتماعي، فالاستفتاء يشير الى إحتمالات كثيرة، بينها عسكرة الثورة ضد "داعش".

السوريون يستعيدون فردانيتهم

صبر درويش

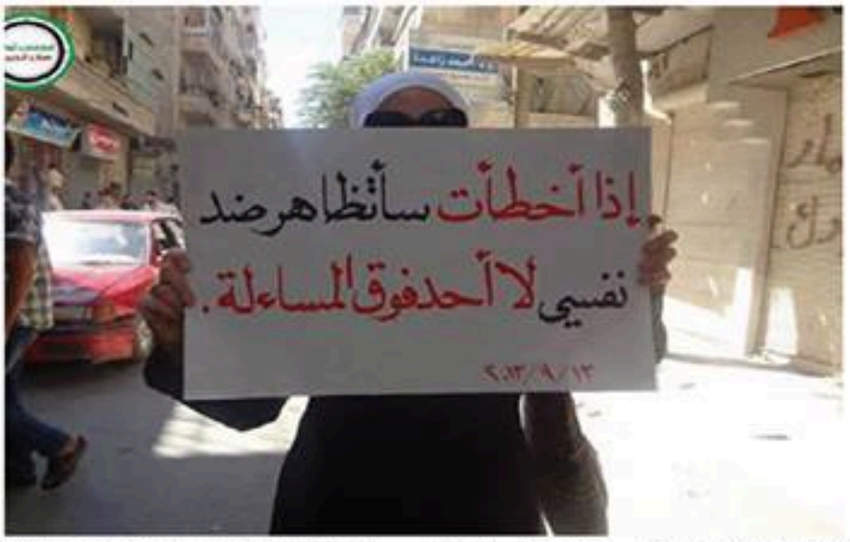

لم يعد من شيء بديهي داخل إطار المجتمع السوري، ولا مسلمات مذ انطلقت ثورته منتصف مارس ٢٠١١؛ يدخل السوريون في سجالات لا تنتهي، ويختلفون على أدق التفاصيل، وهو دليل صحة وعافية المجتمع، الذي خنقته سنوات حكم البعث، ودمرت أعظم ما فيه، فردانيته. لم تثر تاريخيا أيا من القضايا الخلافية داخل المجتمع السوري، ليس لأن هذا الأخير مطلق الاتفاق، بل لأن حجم التابوات التي فرضها حكم الأسد، خنقت المجتمع ومنعت أي نوع من أنواع السجالات المجتمعية، حتى أن مفكرا سوريا كأبو علي ياسين، سيطلق على كتاب له أصدره في السبعينيات، "الثالوث المحرم"؛ اليوم يفتتح السوريون نقاشات لا تنتهي، حتى بين أفراد الصف الواحد، يخضعون كل شيء للتشكيك والتفنيد، ويبدو أنه لا شيء يعجبهم، فخلف اللوحة القاتمة للأحداث في سوريا، ينمو مجتمع جديد، يضج بالحياة، هناك حيث سنجد الآثار الحقيقية لثورة السوريين.

داخل دائرة الأسرة الواحدة، وعلى شبكات التواصل الاجتماعي، بين أوساط الموظفين، وحتى على التلفزة، يدور نقاش حام، حول من المسؤول عن هذا الحجم الرهيب من القتل، ومن وراء استخدام السلاح الكيمياوي ولماذا، هل الثورة طائفية أم طبقية، أم ربما لا هذا ولا ذاك، وهي ثورة كرامة كما يقول كثيرون، ما موقع جبهة النصرة من الثورة، وهل تنظيم دولة العراق والشام، هم استطالة لنظام الأسد، وماهي حقيقتهم بالضبط؟.

في الحقيقة لم يعد يفاجئنا وجود شاب في المعتقل كونه معارض لنظام الأسد، وأن يكون أخوه في الوقت نفسه متطوعا مع أحدى اللجان الشعبية الموالية للنظام، كما لم يعد يفاجئنا السجالات حتى في صفوف المعارضة ذاتها، حيث يدور اليوم نقاشات حامية حول الموقف من التدخل العسكري الخارجي، وأثره على البلد، ودور التسليح في الثورة، وأثر التطرف على المآلات المقبلة.. إلخ.

أخضع المجتمع السوري عبر العقود الماضية إلى تنظيم دقيق للغاية، فمنذ أن يدخل الفرد السوري أول دائرة في الحياة، مغادرا دائرة الأسرة، يجد نفسه في أحضان طلائع البعث، وهو التنظيم الأول الذي أوجده حزب البعث الحاكم للناشئة، هنا يتم زرع أفكار الحزب في العقول الفتية، وتبدأ المسألة بتلاوة الشعار الصباحي الذي يصبح مرادفا لاسم أي طفل، "أمة عربية واحدة ذات رسالة.."؛ تلي هذه المرحلة، مرحلة "شبيبة البعث" وهي تزامن المرحلة الثانية من التعليم، حيث يبدأ النظام التعليمي بفرض مادتين تعليميتين جديدتين وهما، التدريب العسكري، والتربية القومية، هنا تبدأ العسكرة الحقيقية للمجتمع، فقبل تغيير لون اللباس الموحد لطلبة الاعدادي، كان لون الرداء المفروض على الطلبة هو اللون الزيتي –نسميه في سوريا اللون العسكري- وهنا تبدأ قولبة عقول الفتية وزرع ايديولوجيا البعث في تلافيفها، ينطبق هذا الكلام أيضا على المرحلة الجامعية، حيث على جميع الطلاب الخضوع للتدريب الجامعي، وهو تدريب عسكري بالمعنى الدقيق للكلمة.

بعد كل هذه المراحل، يتخرج جيل من الشبان والشابات التشابهين، حتى يكاد من الصعب التمييز فيما بينهم، هنا لم يعد من فرد، بل كائن ينتمي إلى قطيع اجتماعي، وهذا كان من أهم انجازات حزب البعث التاريخية، اي تحويل المجتمع إلى قطيع اجتماعي شعاره هو التماثل، حيث تصبح السيطرة على هذا النموذج من المجتمعات أكثر سهولة، بينما القدرة على التلاعب في العقول فتجد هنا ملعبها.

لقد أسهم نظام البعث في تأخر تطور المجتمع السوري عقودا طويلة، والمفارقة التي تبرز هنا، أن هذا النظام الذي ادعى الحداثة وتبنيه لمفاهيمها في المجتمع والدولة، أسس لمجتمع ما قبل حداثي، مجتمع أقل ما يمكن أن نقوله عنه أنه مجتمع متخلف، بينما تؤكد هذه الملاحظة، أبسط دراسة مقارنة بين مجتمعنا وأيا من المجتمعات العربية المحيطة، ولا أقول مجتمعات أبعد من ذلك، إذ على المستوى الاجتماعي المعنيين بنقاشه هنا، سيدفع منع تشكيل الأحزاب السياسية والمنظمات المدنية، الأفراد إلى الانضواء في تنظيمات بديلة، كالأسرة الكبيرة، والعشيرة، والطائفة.. إلخ، وهي أشكال من ارتصاف القوى الاجتماعية ما قبل حداثي، هي أشبه بتجمعات اهلية، كانت بديلا للمجتمع المدني والمجتمع السياسي، وهي دوائر للاجتماع تعود بتاريخها إلى ما قبل تشكل الدولة الحديثة، وتفرعاتها من مبدأ المواطنة وسيادة القانون.. إلخ.

تتمحور ثورة الشعب السوري هنا بالتحديد، أي أنها "محاولة" الجماعة لاستعادة هويتها، واستعادة الافراد لفردانيتهم، إنه استعادة للمغزى من التنوع والاختلاف، على اعتبار أن الموت في التماثل، بينما الاختلاف فهو حياة الزمن، كما كان يطيب لهيدي عامل أن يردد.

من هذه الزاوية ينتعش المجتمع السوري باكتشاف ذاته المغيبة عبر عقود، وتنفتح أمام أفراده مروحة واسعة من الخيارات اللامتناهية، وهو تقدم ومكتسب احرزته الثورة السورية بفضل نضالات شبان وشابات، أثبتوا اسرارهم على المضي قدما بما بدأوه، وهو طريق إيجابي تسير به ثورة السوريين على الرغم من كل الجحيم المحيط بتجربتهم، هنا سنجد النواة الصلبة لبدأ تشكل المجتمع المدني السوري، والأرضية التي ستتأسس عليها التجربة السياسية المقبلة، وذلك على الرغم من شبح الحرب الأهلية المخيم فوق الجميع.

بداية الثورة، رفض الشبان المنتفضين أي شكل من أشكال التنظيم الكلاسيكي للحراك الشعبي، فابتكروا مصطلح "التنسيقيات"، كما رفضوا الانضواء تحت أي فصيل سياسي، فخرجوا إلى الشارع متسلحين بإيمانهم بأن "غريزة" الحرية كافية في الوقت الراهن كي تكون بوصلة الحراك الثوري، ومنذ ذلك الحين لا يكف الشبان والشابات عن ابتكار أدواتهم السياسية، التي تنسجم وتطلعاتهم، خالقين بتجريبية كلفتها باهظة للأجيال الحالية، إلا أنها رصيد هائل من تراكم الخبرات بالنسبة للأجيال المقبلة، بيد أنها تضحية كان لابد منها.

السوريون اليوم ينحتون تجربتهم الخاصة، والتي ستفرض تعديلات جذرية على الكثير من نظريات علم الاجتماع، وستأسس لمفهوم جديد للفرد، يضع حدا للطغاة في محاولتهم تدجين الشعوب، السوريون اليوم يعيدون تعريف هويتهم الفردية والجمعية على ضوء ثورتهم المستمرة.

خسارة الثورة للرأي العام العالمي التي لا تعوض

غازي دحمان

كثيرا ما تنزه أنصار الثورة عن قضية الترويج لها لدى العالم الغربي، إعتبروا أن تلك قضية مهينة لثورتهم، وقد تصل إلى حد استمناء واستجداء المشاعر، فيما الصور التي يبثها الإعلام العالمي عن ضحايا الثورة وجرائم النظام كافية لوحدها لايصال الصوت السوري وإقناع الحجر، فكيف الأمر بالبشر؟

على سرير هذه القناعة نامت المعارضة هانئة، وراهنت على أن ماكينة إجرام النظام ستبقى تولد ما يفضح النظام وحلفاءه، وستبقى تهدي الثورة كل يوم فتحا مجانيا، فلماذا الانشغال برأي العالم وموقفه ما دامت الحدود تفيض بمئات آلاف اللاجئين ومادامت الدواخل ترزح تحت وقع مختلف أنواع الأسلحة وتنثر الدمار والموت في العيون وعلى أربعة أركان الأرض؟ حكما برأي المعارضة كان سيبدو أي نشاط إعلامي وأي محاولة لإقامة نشاط علاقاتي يسوق للثورة في الخارج بمثابة جهد فائض سيظهر وكأنه محاولة لتفسير الماء بعد جهد بالماء!

حتى عندما انكشف أن النظام يسعى جاهدا لتسويق نفسه في الغرب والشرق عبر وكلاء وشركات علاقات عامة، استهزأت المعارضة بهذا الأمر إلى حد اعتباره نوعا من النكتة السمجة، بل حتى أنها اعتبرت أن الأمر جزء من حالة التخبط التي سترتد عليه بعواقب سيئة، ما يجعل حملته تصب من غير قصد منه في مصلحة المعارضة وكيسها الفائض بالانتصارات المعنوية والإنسانية؟.

لم ينتبه أحد في المعارضة إلى حقيقة مهمة وهي أن النظام السوري، وبفضل وكلائه في الغرب وشركات العلاقات العامة، اكتسب تقنية مخاطبة العقل الغربي، وصار يعرف كيف يلعب على وتر هواجسه ومخاوفه، كل كلمة ينطق بها رأس النظام ووزراؤه وأبواقه كانت تصدر عن مراكز دراسات مختصة بتقنيات الخطاب وكان وراء سياغتها مستشارون في الغرب. عندما قال رأس النظام خلال حواره مع تشارلي روز، إن الولايات المتحدة لم تقدم ،دليلا واحدا، يؤكد أن الجيش السوري استخدم أسلحة كيماوية، كان يخاطب عقلا أميركيا يطالب حكومته بإثبات أن ما حصل في سوريا هو تهديد للأمن القومي الأميركي والمصالح الأميركية في العالم، لم يهتم أحد من دهاقنة المعارضة لهذا الأمر، بل أن كثيراً ضحكوا من بثينة شعبان بروايتها عن ضحايا الكيماوي، في حين أنها كانت في لحظتها تخاطب ضميرا غربيا كان بحاجة لمن يقذف له حبل النجاة من تأليب ضميره وانكشاف لاأخلاقيته.

إذا، قضيتان لعب عليهما النظام، ولم تلفت لهما المعارضة، قضية معرفة كيفية مخاطبة العقل الغربي بأدواته المفاهيمية ومرتكزاته التحليلية، وقضية اختيار التوقيت المناسب لطرح مقولاته، وقد ضيعت المعارضة بحراً وافراً من الفرص في هذا الاتجاه، ذلك أنها ظلت تخاطب نفسها وجمهورها المعارض، الذي لم يكن بالأصل يحتاج لأي مجهود في هذا السياق، فيما تركت الساحة خالية للأسد وأعوانه، يعملون فيها على تشكيل الرأي العام العالمي وفق مصلحتهم.

تتمة صلحة.. ٤..

موت الفلسطيني والسوري واحد

ماجد كيالي

منذ ثلاثين شهراً باتت قصص الموت لا تفارقنا، إذ هي تحيط بنا من كل جانب، وفي كل لحظة، وعبر روايات متعددة، حتى أننا بتنا نحفظ أسماء الشهداء، وبعضاً من تفاصيل حياتهم، وربما آمالهم وأحلامهم أيضاً.

الموت واحد، لكن طريقه في سوريا لم تعد واحدة، إذ يأتي بطرق متنوعة، ومؤلمة، وصاخبة، ومؤسية. هكذا، ثمة الموت السريع والمباغت بالقنص، والموت المريع بالقصف، والموت الفظيع بالسكين، والتعويث البطيء بالتعذيب المهول. كما ثمة الموت بالرصاص على الحدود، فضلاً عن الموت في التظاهرات. مع ذلك لم يكن يخطر في البال أن ثمة من سيموت بالكيماوي، أي بغاز السارين، أو غرقاً في البحر، لمن شاء أن يهجر عباءه، على متن قارب هرم، بحثاً عن بقية من أمل في مكان آخر، غير العالم العربي.

قصص الموت والخراب العميم هذه، على مرارتها ومأساويتها، أخذتنا إلى تفاصيل الخريطة السورية، بعد أن أضحت مكشوفة، ومنتهكة، فعرّفتنا على قراها وجبالها ووديانها، وأحياء مدنها وتشعّب حاراتها، ومناطقها العشوائية وأريافها المحرومة وباديتها الحارقة، كما عرفتنا على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فيها.

وقد كان مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين أكبرها، وأكثرها شهرة، يغطي عليها، لكن العالم، ومنذ ثلاثين شهراً، بات يتعرّف على كل المخيمات، على مخيم درعا، ومخيم الرمل في اللاذقية، ومخيم العائدين في حمص، ومخيمي النيرب وحندرات في حلب، ومخيمات خان الشيح والسبينة والست زينب وجرمانا في ريف دمشق، وحتى أنه بات يعرف شوارع صفد، والجاعونة، والمغاربة، والثلاثين، وساحة الريجي، والمحكمة، والبلدية، في مخيم اليرموك. وفي غضون ذلك سرنا نسمع عن قصف المخيم، بالدفعية، وبطائرات الميغ، وعن الأصدقاء والجيران والمعارف الذين أضحوا شهداء بالقنص أو تحت القصف أو بالتعذيب، وباتت أسماء الشهداء تتوارد، من مثل أحمد كوسا وجعفر محمد وخالد بكراوي وخليل زيدان وغسان الشهابي ووسام رشدان وأنس عمارة وأيمن جودة ومحمود الشهابي ومحمود عزيمة واحمد السهلي وموعد موعد وشحادة الشهابي ومنير الخطيب وبلال السعيد وبسام حميدي وهادي أبو عجاج وإياس فرحات ومحمد طه. وفي هذه الحال المأسوية بات للفلسطينيين أزيد من ١٦٠٠ شهيد، نصفهم من مخيم اليرموك وما حوله. في حين بات أكثر من ثلثي اللاجئين الفلسطينيين في حال نزوح داخل سوريا أو في حال لجوء إلى دولة مجاورة، كما بتنا نسمع عن مخاطراتهم في ركوب البحر الى غرب المتوسط، مع لاجئين مثلهم لكن سوريين.

هكذا صار وجع فلسطينيي سوريا كبيراً، وأكثر أنا ومأساوية من ذي قبل، كأن وجعهم الخاص لم يكفهم، فصاروا في وجعين كفلسطينيين سوريين. وما أدراك ما وجع السوريين هذه الأيام، وبالهول ما كابدوه منذ ثلاثين شهراً.

ليس ثمة هوية للفلسطيني السوري ولا وطن، فهو غير محسوب كسوري، ولا كفلسطيني، فهو غير موجود في قوائم مواطنية «السلطة»، التي لاتجد نفسها معنية به، في حين أن منظمة التحرير، الممثل الشرعي الوحيد (لمن مازال يتذكرها)، في غيبوبة، اما الفصائل الذي اعطاها هذا الشعب عمره ففي حال من الضياع او اللامبالاة.

بالمحصلة فقد بات الفلسطيني السوري يعيش على حدود الغياب أو النسيان أو الموت، مثله مثل السوري، فإلى هذه الدرجة بات التماهي بين السوريين والفلسطينيين، إذ صار لكل منهم نكبة، وقصة لجوء، وحكاية عذاب. وفي هذا التماهي، أيضاً، صار موت الفلسطيني، يأتي بأشكال مختلفة، مثل موت السوري، فهو إن بقي في المخيم يأتيه من جوع الحصار أو بالقنص، او بالقصف، كما حصل قبل أيام مع استشهاد نشطاء العمل الاغاثي، خليل زيدان وجعفر محمد وفادي ابو عجاج ومحمود عزيمة، وشحادة الشهابي. أو يأتيه في أقبية المخابرات، تحت التعذيب، كما حصل مع موعد موعد، وخالد باكير ووسام سعيد رشدان وياسر جودة، الذين سلمت جثثهم لأهلهم، بعد أشهر من الاعتقال، وهم أيضا من نشطاء العمل الاغاثي ايضا. وفوق هذا وذاك ثمة الموت على البر، على حدود هذه الدولة او تلك، أو في عجاج البحر، وهم يستقلون قوارب «الموت» في رحلة تيه جديدة، كما حصل مع عمر دلول وفدوى طه، الذين قضوا برصاص خفر السواحل المصريين.

ففي اسبوع واحد فقد مخيم اليرموك كوكبة من خيرة الشباب فيه، كل واحد فيهم له حكاية، وعنده قصة حب، ولديه حلم، وأمل، ذهبوا جميعا في حالة موت مريب، كأنه يتقصّد اخفاء هذه النوعية من الشباب، بالقتل أو السجن أو الرحيل، وهذا ماداب النظام على فعله عن سابق تصميم، منذ ثلاثين شهراً، في سعيه لاجهاض ثورة السوريين.

حقاً، لقد كانت ضربة جدّ موجعة لشباب المخيم، ولرفاق الشهداء، هكذا كتب الشاعر رامي العاشق: «كم أنت نهمة يا أرض دمشق، وكم هي كبيرة أحزانك، كيف تستطيعين التهام قلوبنا قلبا قلبا؟!؟! أي دمشق..كيف أبقيت على الشيطان القاتل بسوطه وسلاحه يفتسبك؟! الشوارع صامتة، حيفا ولوبية وصفد والجاعونة مذهولون ان..ولا شيء يوقف نواحها، وأنين الذكريات.. وكتب فادي خطاب: «اليوم يادمشق نترك فيك أجمل مافينا..كي تعرفي كم نحبك..لم أعلم حتى الآن كيف كانت تنام دمشق وصرخات تعذيب خالد كانت تصدح في أزقتها؟!..اليوم ياسوريا وهبك الفلسطينيون أجمل شبابهم كي تعرفي كم نحبك.. أما عبد الله الخطيب فكتب (٩/٨)، عندما وصله خبر استشهاد جعفر وخليل ومحمود: «رحنا ندفن الاول كانو جايبين التاني سألت عن التالث كان الرابع مدفون؟، وراح يناجيهم واحدا واحدا: «ابو بسام حقك على راسي ماحضرنا عرس ابنك..محمود عزيمة حقك على راسي ماكملنا «الحكي»... هادي ابو عجاج العظيم مين بدو يصورني؟! جعفر المخيم..كان وجودك يطمني أن الأمور بخير..كلكم بيوم واحد كتير على واحد مثلي كتير كتير علي.. بعدها عندما وصل خبر وفاة خالد ووسام وياسر (٩/١١) تحت التعذيب، كان وقع ذلك جد مؤلم، فكتب عن خالد: «لوين طلعت على السما؟..يا الله شو أعمل من شان ترحمني.. خالد اخوي رفيق روحي وصليبي وكل شي..ماعرفان شو احكي..راح ابكيك لتخلص الدنيا..بتذكر أني بحبك..خالد بعد هلق سامحني ماعاد في شي ممكن اعملوا..انا استسلمت».

هذه قصة مخيم..وقصة الفلسطينيين السوريين، ولكنها قصة سوريا كلها..فالألم واحد والأمل أيضا.

تتمة: خسارة الثورة للرأي العام العالمي التي لا تعوض

غازي دحمان

تكشف خريطة مروجي وداعمي نظام الاسد في الغرب، وبالتحديد في أميركا، عن جملة من المواقع الالكترونية وبعض الكتاب ومقدمي البرامج التلفزيونية، وهم في أغلبهم ينتمون إلى التيار اليميني المحافظ، أما تقنيتهم في هذا الأمر فتعتمد على إسلوب إعادة نشر إدعاءات داعمي الأسد من دون التشكيك فيها، وذلك بهدف التأثير على التصور العام للحدث السوري في العقلية الغربية، فعلى سبيل المثال، قال مقدم البرامج المحافظ راش ليمبو لمستمعيه في الثالث من شهر أيلول، «تتراكم الأدلة التي تظهر أن الثوار في سوريا يحاولون إلصاق تهمة شن اعتداء كيماوي بالأسد، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فقد يكون أوباما وحكومته متورطين في هذه المسألة، تكثر الأدلة التي تكشف أن البيت الأبيض كان على اطلاع على خطة لتنفيذ المعارضة اعتداء بالأسلحة الكيماوية في سوريا وربما ساهم فيها».

وأشار ليمبو إلى مقال ليوسف بودانسكي، يسأل بودانسكي، "كيف يعقل أن تواصل إدارة أوباما دعمها المعارضة وتسعى لتمكينها، علماً أن هذه المعارضة قتلت عمداً نحو ١٣٠٠ مدني بريء؟"

وساهمت الأصوات الموالية للأسد أيضاً في سوغ الإستجابة الأوروبية للحدث السوري، إذ لا تتألف المنظمة البريطانية Stop the War) أوقفوا الحرب، التي لعبت دوراً كبيراً في إقناع البرلمان برفض توجيه ضربة إلى سوريا، من أشخاص يعارضون التدخل وحسب، بل تشمل أيضاً داعمين متشددين لنظام الأسد، فنائب رئيس هذه المنظمة شيوعي ستاليني، يثني على عائلة الأسد، وتاريخها الطويل في مقاومة الإمبريالية.

وتأتي وسائل الإعلام المسيحية من بين الوسائل الأكثر شيوعاً التي تتسلل من خلالها الدعاية الموالية للأسد إلى الصحف المحترمة، حيث تعمد بعض وسائل الإعلام هذه، التي تغطي معاناة المسيحيين في سوريا، إلى نشر معلومات غير دقيقة أو مثيرة، على سبيل المثال، عمدت وكالة أنباء الفاتيكان الرسمية Agenzia Fides إلى نقل كامل التقرير الذي نشره موقع «الحقيقة السورية» الالكتروني الموالي للأسد عن عمليات قتل جماعي يتعرض لها المسيحيون في حمص، وقامت صحيفة لوس أنجلس تايمز بدورها بنقل هذا التقرير عن Agenzia Fides من دون أن تذكر بالتأكيد المصدر الأصلي، ومن أكثر الناصرين لنظام الأسد شهرة وصيتاً تأتي الأم أجني ماريام دي لا كروا، التي تقول إنها راهبة كارملية ولدت في لبنان، وإنها تحولت إلى المسيحية في التاسعة عشرة من عمرها، وفي تصريحاتها عن مجزرة الكيماوي، اعتبرت أن الفيديو المصور الدال على حدوث هجوم كيماوي في ٢١ أغسطس جرى فبركته من جانب الثوار، قائلة «إنه تم تمثيله وإعداده بصورة مسيئة من أجل تشويه الحكومة السورية وتصويرها على أنها المنفذة للهجوم».

مع انحسار إمكانية الضربة العسكرية للنظام، واحتمالية استمرار الوضع في سوريا على ما هو عليه، تواجه الثورة خطر التهميش، إن لم يكن خطر قناعة الجزء الأكبر من الرأي العام العالمي برواية نظام الأسد، الأمر الذي يتطلب إعادة سوغ المقاربة الثورية بطريقة أكثر مرونة وقدرة على الإقناع، والاعتراف بكل الأخطاء التي حصلت على هذا الصعيد والعمل على تجاوزها ما أمكن، وإلا ضاع الدم السوري هدراً بسبب عدم القدرة على إيصال الصورة الصحيحة.

قبل أن تكتب تاريخنا

مناف زيتون

نحن يا سيدي جيل بلا مستقبل...

قتلوا أصدقاءنا وباتت سهراتنا وحيدة، أغلقوا الأبواب على أحلامنا، ومنعوا الضوء من الدخول إلا في أوقات التبول. نحن يا سيدي خرجنا لنواجه الحياة برغبة عارمة بالنصر، فوجدنا المعركة قد تغيرت وباتت معركة من أجل الحياة وليس معها، وباتت الرغبة بالهزيمة، سبحنا بعكس التيار مراتٍ عديدة ظننا منا أن التيار لن يجرفنا يوماً، ولكن السد انهار، وخرج النهر المتوحش دون أصفاده جارفا حتى ما تبقى من تعرقنا ملتصقاً على قطرات ماء النهر. نحن يا سيدي خرجنا من رحم الحقيقة، تلك التي يبحث الجميع عنها، خرجنا من بين جدران ينقصها الإسمنت، من مكاتب ينقصها الإنترنت، ومن صفوف ينقصها العلم، ينقصها الوجود تحت إدارة عقلية بعيداً عن صراعات الآلهة. نحن يا سيدي علمونا منذ خرجنا إلى النور أن ماضينا أبيض، وأن مستقبلنا أبيض، وحاضرنا لم يخبرونا عنه شيئا، وحاضرنا اليوم، الذي كان مستقبلنا يوم أمس، مجردٌ من الألوان، رمادي كلون الأنقاض، وتقاطع مله بعض الألوان المقيتة.

نحن يا سيدي جيل بلا مستقبل...

أغلقوا في وجهنا الطرقات بحواجز تطلب الهوية، نحن يا سيدي منذ ولدنا بلا هوية، أغلقوا في وجهنا الطرقات طالبين منا البطاقة الشخصية، ونحن منذ ولدنا مجرد نسخة عن نسخة، مجرد دفاتر ملينة بالملل بلا شخصية، أغلقوا في وجهنا طريق المطار، وأغلقوا في وجهنا محطة القطار، أغلقوا في وجهنا باب المنزل وباب البراد، أغلقوا في وجهنا كيس الثلج وزجاجة الفودكا، أغلقوا في وجهنا كل المعابر... حتى الكحول.

نحن يا سيدي جيل بلا وطن...

يعبثون بكل ذرة تراب قبلنا حكاياتنا المراهقة عليها، مزقوا كل أريكة اهتزت سبع ليالٍ متتالية، وأضرموا النيران في حاويات القمامة التي تحتضن كرحم مؤقت مشاريع أجنتنا، ويقولون لنا في النهاية أن لنا وطن، يطلبون منا أن ندافع عن هذا الوطن، أن نحب هذا الوطن، أن نهتف ونصرخ ونحتمل صعقات الكهرباء من أجل هذا الوطن، يا سيدي... يطلبون منا أن نرقص في الساحات من أجل هذا الوطن، أي وطن هذا يا سيدي دون أبناء يرون النور بعد حصة الرياضيات؟ أي وطنٍ هذا بلا نساء يزغردن دون بندقية تنظم مقامات الزغردة؟ أي وطن هذا الذي يطلب منا أن ندفع له النقود، ولا يدفع لنا في النهاية بسيجارة أو كأس عرق مثلث؟ يا سيدي لقد رأينا خريطة، قالوا لنا أن هذا هو الوطن، وطلبوا منا أن نحب هذا الوطن، لم يتركوا لنا نقودا تكفي زيارة أيا من ربوع هذا الوطن، أو أنصافه أو أي جزء مجزء منه. يا سيدي نحن جيل بلا وطن، نحن جيل لا يملك أريكة ولا يملك أجنة ولا يملك وطن... نحن جيل يملك خريطة فقط.

نحن يا سيدي جيلٌ بلا مستقبل...

هل بوسع السيقان المكسورة قفز الحواجز أو ممارسة الجنس وقوفا؟ هل بوسع الأيدي المبتورة الكتابة أو تشغيل السجائر؟ حل بإمكان الحناجر المقتلعة الهتاف أو الغناء أو على الأقل القضاء على صمت الاستحمام؟ يا سيدي هل بإمكان النساء الميتات إنجاب الأطفال؟ وحدها القذائف هي القادرة على التكاثر، الخصيان يعجزون عن إخصاب أرحام الجواري، يا سيدي لم يبق لنا منه سوى وجهٍ مبتسمٍ يهزأ من عجزنا عن صناعة قوس قزح للمرة الثالثة، كيف تطلب من جيل تنطبع في رأسه وجوه قضبانٍ هازئة أن يكونَ له مستقبل؟

نحن يا سيدي جيل بلا وطن...

اتهمونا بهدم أبنية لم تبنى، وقتل رجال لم تمت، قالوا أننا السبب في التأخر بتحرير فلسطين، يا سيدي نحن لم نفعل شيئا بعد سوى النمالة والزنى، طلبوا منا أن نرمي أسلحتنا، فكسرنا كؤوسنا ومزقنا الأسرة، يا سيدي نحن كنا على وشك أن نبني وطنا، وقبل أن يبنى هدموه فوق رؤوسنا، واتهمونا بأننا هدمنا ما لم نبن، بأننا هدمنا ما لم يبنه أحد، نحن يا سيدي لا نطلب من الوطن سوى شارعا وبعض الكحول وإضاءة لطيفة، يا سيدي نحن جيل بلا مطلب، نحن جيل بلا أحلام، نحن جيل موءود مع وقف التنفيذ، يا سيدي، حين تكتب تاريخ البلد، قل عنها أنها تركت جيلا كاملا من أبنائها بلا أمل ولا مستقبل ولا سبب وجيه للتفاؤل، قل أنها تركت جيلاً كاملاً بلا وطن.

وائل القاق.. خبر عاجل

ديمة ونوس

«خبر عاجل إجانا».. والمصدر عمّي أوباما... هكذا تبدأ أغنية «خبر عاجل» للموسيقي السوري الشاب وائل القاق، وهي ضمن الألبوم الجديد «خبر عاجل» الذي سيصدر خلال أسابيع قليلة، ربما تشكل هذه الأغنية بداية جديدة لمفهوم الأغنية الشعبية الثورجية، إذ لم تعد الكلمات البسيطة التي تحمل معنى سياسيا وقضية شعب ومعاناة، حكرا على مغنين شعبويين مثل شعبولا.

يكاد لا يمرّ أسبوع من دون أن أسمع أحد الأصدقاء أو المعارف يتساءل عن زياد الرحباني ومشروعه الموسيقي والإبداعي المناصر للمظلومين والفقراء والمهمّشين، وهل قضية الشعب السوري إشكالية إلى الحد الذي يتخلى موسيقيو «القضايا العادلة» كمارسيل خليفة وزياد الرحباني وجوليا بطرس، عن قضيتهم؟

في الوقت ذاته، لا يبدو الأثر الذي يتركه غياب هؤلاء الموسيقيين المكرّسين، كبيرا. لا بل يرى البعض أن صمتهم وتخليهم عن قضايا الشعوب العربية الثائرة، منح الجيل الجديد الفرصة للظهور. هذا الجيل الذي قمعته «قدسية» المبدعين الكبار كما قمعته الأنظمة الديكتاتورية بالضبط. القدسية التي جعلته مهزوزا، هشا، لا يجرؤ على المبادرة في ظل قامات إبداعية لا تكتفي بعدم تشجيع أبنائها، بل تقسو أكثر إذ تنظر إليهم كجيل كسول، غير مثقف، تافه ربما.

إلى جانب انهيار بعض الأنظمة العربية، كان للثورات إنجاز لا يقلّ أهمية عن إسقاط رئيس ونظام وعسكر، الثورة التي ابتدعها جيل الشباب «الكسول وغير المثقف والتافه» دعمها ثقافيا وفكريا جيل الشباب أيضاً. بحيث باتت «لافتات كفرنبل المحتلة» توازي رسومات علي فرزات من حيث الأهمية والانتشار، ورسومات تمام عزام كذلك. وصور جابر العظمة. وأفلام خالد عبد الواحد. وموسيقى وائل القاق أو خالد عمران. وغيرهم كثر من أسماء معروفة وأسماء مجهولة الهوية.

ترك وائل القاق بيروت قبل عام وسافر إلى باريس حيث يعمل على استكمال مشروع بدأه قبل عامين. وهو إعادة إنتاج الموسيقى الشعبية التراثية التي أعيد إحياؤها في التظاهرات السورية بداية الثورة. «إحياء الموسيقى الشعبية ليست هاجسي الوحيد، بل توثيق سلمية الثورة. تلك السلمية هي البوصلة. وجع الناس والمطالب المحقة والإنسانية والكرامة والحرية، هي بوصلتنا ضد التدخل وضد التطرف». يقول الموسيقي وائل القاق الذي أسدر ألبوم «نشامى» قبل عام، ولم يلق رواجا وإقبالا كبيرين مع أنه يوثق الجانب المضيء والحميم من الثورة السورية عبر الأغاني الشعبية مثل «جنة، وعيني عليها، ويا محلاها الحرية» وغيرها. «المشروع لم يأخذ حقه. لو أن مشروع «نشامى» يدعم النظام وليس الثورة، لكان نال شهرة أكبر. النظام يعرف للأسف كيف يروّج جرائمه إعلاميا بينما الثورة لم تنشغل بتسويق أهدافها».

الـ«سي دي» الذي أصدرت منه ١٥٠٠ نسخة لم ينجح إلكترونيا (أون لاين)، بينما تم بيع أكثر من ٥٠٠ نسخة عن طريق الأصدقاء في بيروت والوطن العربي. وكان من الصعب بيعه في الداخل، أولا بسبب ثمنه (٢٠ دولارا)، وثانيا، بسبب صعوبة تسريبه.

وعن خروجه من سوريا، يقول وائل القاق: «سئلت لدى اعتقالي في نيسان ٢٠١١: هل أنت معارض؟ إن كنت معارضا، اخرج من البلد، نحن ما عنا معارضين! أنا لست مقاتلا ولا ناشطا سياسيا. أنا موسيقي وهذا ما أعرف القيام به. والموقف الذي أرغب بتسجيله عبر إعادة إحياء التراث المقيّب والمدفون، ليس موقفا سياسيا بل إنسانيا، في محاولة للامسة أوجاع الناس ومصائبهم ومعاناتهم».

ومهما حاول وائل الانفصال عن السياسة والعمل على مشروع ثقافي، فكري، إنساني صاف، لا يمكن له أن يبقى معزولا بشكل تام عما يجري في سوريا سياسيا. ينتقد وائل المعارضة السورية المنفصلة عن الواقع وعن الثورة، «الثورة فعل شعبي والمعارضة منفصلة عنها وفاشلة. بعض المعارضين شريك في القتل وحرّض على حمل السلاح، من حق الناس الدفاع عن نفسها وحمل السلاح لكن ليس من حق أي كان أن يطالب الناس بحمل السلاح والقتال وهو جالس في الخارج».

في حين يرى الكثيرون أن العمل في الثورة يجب أن يتم من الداخل وليس من الخارج، تشهد الحدود السورية كل يوم، ترحالا جديدا، ليس السفر هنا، لكن البقاء أيضا بات مستحيلا بالنسبة إلى البعض. وائل لم يرجع إلى سورية منذ خروجه منها قبل عامين. ومن البديهي أن أفكر للحظة أنه يدخل إليها بين فترة وأخرى عبر الحدود التركية لزيارة المناطق المحررة وللعمل من هناك ربما على مشروعه الموسيقي المدني والسلمي. إلا أن وائل لم يزر تلك المناطق بعد وربما لن يزورها قريبا. «خرجت من سورية عبر الحدود الرسمية ولن أعود إلا من المكان ذاته الذي خرجت منه»...

"كيت ما".. لا تذهب

مقداد خليل

يزحف قلق غراب على العشب الحدائقي القصير. عنكبوت سوداء صغيرة تدب فوق بنطالي القمحي. قلما أخلعه في زيارتي الحائرة هذه لاستانبول وقد مضى منها شهر. طفلنا يخطئ بنقيفته المسبوكة من البلاستيك ويصيب صدره ويتأوه. يسألني أن أصنع له واحدة حقيقية. فأجيبه بالسلب وأرى السماء والبحر خلل الأشجار، فأجد هذا الوجود بنسبة ما. زوجتي تعتمد على جذع سروة. نقتات من بذور عباد الشمس. تنأى وطفلي من وراني باحثين عن حصوات للرماية، ويتناهى إلي صوت الطفل، وحيدا بقي أبي.

تينيسي ويليامز يصعد في رأسي. حكايته في البحر أو البحيرة حيث الشمس وفتاة، تأملاته المسترخية في الزورق. ربما بسبب الصيف أو المياه، ولكن أكثر من ذلك هو يمثل دفاعي الآن إزاء الحصيصين الخارجي والداخلي.

. عينا الكلب المستلقي في محطة الانطلاق المرصوفة بحجارة سوداء تتناوبان سريعا الحزن واللامبالاة. فتكونان بتمام التعقل والحكمة. متنكبا إطار المقعد الخالي أمامي (وكل المقاعد خالية). بحيادية الشاعر أصوب نظري إلى عيني ذلك الكلب حتى تتحرك الحافلة فيصعد فرادى المتنقلين ويظل هو مكانه.

. شراب محكم ثقيل. فأجيبُ بأنه لذيذ حامض وها أنا أتعرق في الحافلة وأتمخط بينما يتواقد ركاب كل محطة من (كورتولوش) إلى (بيني كابي)، ما بين ساعدين من الترك والأفارقة توشك أن تملأ الحافلة. سمين يتابع وأنا من خلفه مباراة فوتبول عبر شاشة الموبايل. يخلي رجل تركي مقعده متأففا مشيرا بالقرف إلى الشابة الإفريقية المتأنقة. تمكث مهانة في جوارد. الرجل ينتهر إلى الوراء فظننته مترجلا في المحطة القريبة. ولكنه عاد بعد دقائق للمقدمة حيث أخلي مقعد هناك.

مرت الحافلة على جسرين ممتدين فوق البحر واخترقت نفقا. وفي موقف ساحة متألقة ترجلت الافريقية ومشت تتماسك. فرأيت بوضوح التكور المخدل في بطنها.

تينيسي ويليامز في إستانبول. علينا أن نتدبر على عجالة بيوتا ثلاثة للإيجار، وإلا فإن ملاك البيوت هنا باتوا يمتنعون عن التأجير للسوريين والكرد.

مضى شهرٌ هنا - البداية كانت في تموز - الشمال سوري سياحا - الجنوب التركي عند الظهيرة. قطعنا أقل من نصف ميل لخمس ساعات - الحقائب مُرغت بالتراب والقش والأشواك. وظللنا استبسل حقا في لهيب الشهر السابع.

أخذنا (خالي فريد) مع حقائبنا بسيارته إلى ماردين المستلقية على الجبل. في المؤسسات المعنية التقطت لنا صورٌ أمامية وجانبية وامتلأت استمارات ثلاث بأسمائنا وما يتداعى منها. وكان هناك رجل ملتح نائما مشخرا فوق البلاط. (قصرا قلندرا) - القرية الكبيرة - أعود إليها بعد ثلاثة عقود من السنين. ملأت عنها كراسا صغيرا قبيل خدمة الجيش وأثناءها. الذاكرة اختلطت بالأساطير. (بيوت حجرية - بساتين بطيخ ممتدة - قطعان المواشي والحمير - الآليات السيارة المحبوكة من الأسلاك - الموتى اللحميون من أهل أمي وأختي «حبة الرمان»).

شرعت بالمقارنات، قصر جدي أسفر وأخضر، غير ذلك لا اختلاف يُذكر.

من السطح إبان الأسبيل كان الأمر لا يُصدق. تخط معقد لبضعة أمتار استغرقنا التناعب والتهويل والترجي. الباقي من أهلنا وصحبنا في الجنوب حيث (عامودا) المنخفضة لا تبعد سوى بضعة أميال.

. كم تبعد إستانبول؟

عشرين ساعة داخل باص.

أهل أمي ومعارفهم متعاطفون مع حملة السلاح من أكراد سوريا، ووجدوا أنه لولاهم لفتك رجال (جبهة النصرة) بالشريط الكردي. ولما امتنعت عنهم المدن ولاستبيح كل محرم. وكنت أجادلهم قليلا في التفاصيل وفي الماورائيات. لكنهم معتدون بالآراء المسقبلة التي كونوها كما يرغبون. فأحتد حينا ثم أستعيد رُشدي لأني (نازح)، (النزوح) لم يكن بتمام هذا المعنى في خيالي.

. ما الماء بالتركية؟

. سو.

(روهي سو)، تعرف هذا الغني؟

. لا.

. (إستانبول) بعد ثماني عشرة ساعة أو تسع عشر. (شهرزاد) بالانتظار في (إيسلر). سنقيم في (كاناريا) إلى أن نستأجر بيتا.

. الأعمال وفيرة هنا - التصوير الفوتوغرافي، إخراج أفلام تسجيلية قصيرة. سكيتشات للشركات المولة والقنوات. استثمار أحد المطاعم لصالح الائتلاف و(النرجيلة). حسب المستثمر، ستتحكم بميزان الربح.

انقضى شهر. الأعمال عديمة في إستانبول. مهربو البشر يعملون. ورجال السياسة أيضا والصيادون الذين يغافلون المحار في الليل المتأخر. البيوت لا تستأجر لنا نحن السوريين.

طفلنا يرى في الحلم بأننا ننزلق إلى البحر ولا نغرق، نتنفس الماء.

يركض طفل في شارع من (إستانبول) فتصيح به فتاة:

. شاهين، كيت ما.

. كيت ما، أفهم منها «عُد»، فأتأثر، وتزاد دلالات ذهنية وشعورية إلى «عُد» بالعربية. عندما أسير في وسط (آك ساراي) التجاري والوحشي أو أقف في الحافلة المطويلة المزدحمة الفقيرة بالحياة، ترتفع أحيانا من أحشائي إلى شفتي (كيت ما)، الجملة الأدبية الخالصة ذات الأمل المبهم.

على الساحل أو في الحافلة أخبرني صاحب بأنها تعني: «لا تذهب». أي «شاهين، لا تذهب». وعلى الرغم من ذلك فهذا نداءُ صاحبتي منذ قدمنا إستانبول.

باخرة أو اثنتان ستبحران صوب شواطئ أوروبا قريبا، إضافة لحركة التهريب المستمرة للمهاجرين من المطارات. وبالشاحنات العابرة برا إلى بلغاريا واليونان ورومانيا. (آك ساراي) مركز الالتقاء والتخطيط والاتفاق على هذه العمليات، لذا تجد أزقتها وشوارعها عاجة بالقادمين من أكراد سوريا وقصدهم ولوج أوروبا.

الحقائب الشخصية تُعلق من الأكتاف. ما بين السير والجلوس إلى المطاولات التي تتوزع الأرصفة والشوارع حيث تزدهر المقاهي والمطاعم البسيطة. تعج (آك ساراي) بالوافدين. حول كل سمسار يعمل لأحد المهربين - الغالب أن يكون كرديا سوريا - يتجمهر طلاب الهجرة، تجمهرا قد يتكرر مرارا ويتراخى حتى لا يعدو كما كان. فالمواعيد مرنة وليس بالمستهجن أن يُنكث بها. أو هو في عرف هذه المهنة وتداولها.

الحديثون هناك من الوافدين يجتهدون ليبينوا ملمين بالأمور والأشياء. فطبيعة نزولهم بالمكان حيث الطموح والثروة الحمولة للمهربين وقد جُنيت بقطع الصلة بما امتلكوا، وجلها بيوت وأراضٍ وذهب نساء، تتيح لهم التظاهر بالمعرفة والحنكة.

في الأماسي يأخذهم الضجر والذي سهوا يقرون به إلى الساحات والأزقة، يقفون أمام المستعرضين من عازفين ولاعبي خفة وفتيات ليل صغراهن قاربت سن اليأس في الغالب.

أنتم وسخون أيها السادة

نبيل ملحم

"هو الحصار".. والسوري اليوم بات رهين خيارات ليس منها ما يمكن أن يسمى خيارا.. كان عليه أن يحفر اللغة ليتعرف على مصطلح جديد يليق ببيومياته وقد انتهت الى «أل» «لازمن» و«لا مكان».

يوميات تتقاطع فيها:

نهايات التنظيمات الجهادية وقد انحصت المناطق الواقعة تحت قبضتها الى قانون السكاكين.

معارضات، أبسط مايقال فيها «مخزية». "فاسدة". متسولة، وجاهلة بكل شئ سوى باستحقاق أفواهها ومعداتها.

سلطة راكمت خبرة القتل منذ أن احتكرت القوة والمال واحتكرت معهما حكمة «وحدي أو لا أحد".

هي نتائج، وربما تصلح في مكان ما لتكون مقدمات.

الى السلاح.. كان شعار من لم يحمل سلاحا من المعارضات السورية التي اتخذت الدعوة الى السلاح ممرا نحو بيوت المال، ونحو الاثراء، ونحو افساد مالم يفسد بعد. ومنها شخصيات نحتها الاعلام لتكون «وجدان" شعب، فقبلة على كتف واحد من زعاماتها الذي لا يليق بقامته أن يكون أكثر من مهرج في سيرك، منحته حق اعلاء شأن جبهة النصرة ومن ثم اعتبارها «فصيلا ثوريا". ومنحة من الدوحة لنأن من أعلامها ساقته لذات الاعتراف.

وهذه هي اللحظة السورية الجديدة التي «يقتل فيها (الثوار الثوار)" ودائما بين قوسين. وما بين المتقاتلين يضيع الناس، أو ما تبقى من الناس.. تضيع البلد أو ما تبقى من البلد.. يضيع الطريق أو ما تبقى من الطريق. وهذه سوريا قد تبيت لتصحو خارج الخرائط. ومن ثم لتتنازعها الخرائط مابين "لاحول ولا قوة الا بالله"، وبين «الحكم لشريعة الله"، وبين لا اله. ومع كل رقة عين تنحسر احتمالات أن يبقى للبلد بلد. وليس ثمة من يقف تحت قوس محكمة في المناطة السورية، وليس ثمة من يستطيع القول لمن أدخل البلد في متاهتها:

. تعال الى حيث نسألك.

البداية كانت الدعوة الى السلاح لحماية متظاهر.. والنهاية أسقط سلاح حماية المتظاهر التظاهرة ومتظاهريها وبات طريقا جديدا الى القتل.

كان هذا هو التداعي الطبيعي للأمور ومن لم ير، لم ير لا لأن الرؤية مستحيلة، أو عصية على العين.. من لم ير لم ير لأنه لا يريد أن يريد، ومازال كما ابتدأ محترفا لمهنة يمكن أن تسمى حفار عظام السوريين الرهونة للبيع.

هاهو السوق يفتح أبوابه للبيع، وهاهي الأسواق لا تعرف حقيقة أننا عراة ومحطمون ويائسون.. والمسلسل يمضي حلقة في المستحيل تأخذك الى جديد المستحيل، ولمة من يسألك:

. لم لست سعيدا..

لأنكم وسخون أيها السادة .. ثمة ملح يعلق في جروحنا.. البحصة في الفم باتت خانقة.

. الوساخة كما الموت لا تحتاج الى شهادة ميلاد.

الحرب تفكك المجتمع السوري

مروان ابو خالد

أدت الحرب التي أشعلها النظام إلى انفجار أزمات اجتماعية خطيرة لن يكون علاج آثارها بالأمر السهل. إضافة الى بروز أنشطة مافيوية عديدة تهدد سلامة واستقرار المجتمع السوري. وهذا ما يمكن تلمسه في جوانب عديدة.

من ناحية ازدادت حالات الطلاق في محافظتي دمشق وريف دمشق إلى معدلات عالية تجاوزت ١٠٠٪، بواقع يعادل ١٠٠ حالة طلاق في اليوم. مع العلم أن حوالي ٧٥٪ من حالات الطلاق قد تمت برضى الطرفين نظرا للظروف الاقتصادية والمعيشية الصعبة. تقول منى إحدى المطلقات من منطقة القوطة الشرقية: "تزوجت من زوجي بعد حب دام سنوات عديدة، وعشنا حياة سعيدة، ولكن مشاكلنا ابتدأت منذ دمار منزلنا بعد قصف طائرات النظام له، ونزوحنا من منطقتنا، حيث خسر زوجي أيضا محله التجاري الذي يعمل فيه، إلى أن قرر زوجي الانفصال عني، لأنه لا يستطيع القيام بواجباته اتجاهي على حد تعبيره، لكونه خسر المنزل الذي يأوينا، وأضحى عاطلا عن العمل".

ويترافق ارتفاع معدلات الطلاق، مع انخفاض كبير في معدلات الزواج بنسبة ٤٠٪، وتجاوزت عتبة ٦٠٪ في المناطق الساخنة التي تشهد أعنف العمليات العسكرية المنظمة، وهذا ما سيؤدي لارتفاع نسب العنوسة بشكل كبير. يضاف لذلك أن انخفاض معدلات الزواج بسبب ارتفاع تكاليفه وظروف الانهيار الاقتصادي التي يعانيها السوريون، تعتبر من أهم العوامل التي تقف وراء زيادة معدلات الاغتصاب، فوفقا للأرقام الحكومية تم تسجيل ٣٧ ألف حالة اغتصاب في محافظة ريف دمشق بمفردها. واستفحال هذه الجريمة الخطيرة على نطاق واسع سيهدد النسيج الاجتماعي داخل المجتمع السوري.

ومن ناحية أخرى، تبرز قضية تعاطي المخدرات بأنواعها المختلفة كواحدة من أبرز الأزمات التي تهدد مستقبل الشباب السوري، فبرغم أن آخر الإحصاءات الحكومية المنشورة العام ٢٠١٢ تشير إلى أن نسبة التعاطي في سورية متدنية وتبلغ ١٣٤ شخص بالمليون، إلى أن هذه الأرقام غير دقيقة إطلاقا، فسوريا تعتبر من أهم البلدان لعبور تجارة المخدرات من لبنان وتركيا والعراق، ولاشك بأن ظروف الفوضى في كثير من المناطق وعدم ضبط الحدود، قد سمح بزيادة الكميات المهربة من المخدرات ونقلها عبر الأراضي السورية، وبالتالي زيادة في توفر المواد المخدرة في الأسواق السوداء وزيادة استهلاكها المحلي، لاسيما أن ظروف الحرب وما يرافقها من توتر نفسي واكتئاب تدفع بشرائح اجتماعية جديدة لاستهلاكها لأجل احتمال الواقع الصعب.

ويلاحظ أن زيادة الطلب على حشيشة الكيف أدى الى ارتفاع سعرها ما يقارب ثلاثة أضعاف، حيث أصبحت السيجارة الواحدة منه تكلف حوالي ٥٠٠ ليرة سورية، وفي حالات كثيرة يلجأ المتعاطون العاجزون عن شراء الحشيش والمخدرات مرتفعة الثمن، إلى تعاطي بعض الأدوية الطبية المخصصة للعلاج بكميات كبيرة، بحيث تعطي مفعولا شبيها بمفعول المخدرات، كحبوب البروكسيمول، والبالتان الذي يوصف لعلاج بعض الأمراض النفسية، أو اللجوء إلى شراء بعض أنواع الشراب المهدئ للسعال كشراب السيمو الذي يحوي على مادة مخدرة تسمى الكودئين، إذ يكفي شرب زجاجتين منه للوصول لحالة النشوة، وهو أحد أكثر الأصناف طلبا من المدمنين لأنه رخيص السعر، فالزجاجة الواحدة منه لا تزيد عن ٥٠ ليرة سورية.

ولايقل ملف المفقودين والمخطوفين خطورة على سلامة المجتمع، حيث لا توجد أرقام مؤكدة عن أعداد المفقودين والتي تتراوح حسب تقديرات مختلفة ما بين ٧٧-١٢٠ ألف مفقود، بعضهم قد يكون معتقلا في السجون، وبعضهم الآخر قد يكون تم خطفه بغرض الاتجار به، في ظل ابتزاز تتعرض له أسر المفقودين الذين يدفعون مبالغ طائلة في بعض الأحيان للحصول على أي معلومة عن مصير مفقودهم.

وقد برزت ظاهرة الخطف مقابل الفدية كأحد أبرز الأنشطة الاقتصادية المافيوية ربحا خلال العامين الماضيين، وقد قدرت بعض المصادر الحكومية بأن عدد المخطوفين قد وصل إلى ١٨ ألف مخطوف، في حين أشارت مصادر أخرى إلى أن الرقم قد تجاوز عتبة ٢٨ ألف مخطوف، وتتم عملية المبادلة مقابل المال بعد مفاوضات مضنية مع أهل المخطوف والتهديد بتعذيبه وإرساله مقطعا إلى ذويه في حال لم يرضخوا لمطالب الخاطفين الذين يطلبون مبالغ مالية تتراوح ما بين٥٠٠ ألف-١٠ مليون ليرة، وذلك تبعا للحالة المادية للمخطوف وسير عملية التفاوض.

والحال ان التفكك الاجتماعي هو النتيجة الحتمية لاستمرار سياسات النظام القائم، ومستقبل المجتمع السوري بات اليوم على المحك ما لم تغير هذه السياسات جذريا، بما يسمح بإعادة ترميم وبناء مفاصل المجتمع المهترئة على أسس صحيحة تحافظ على جوهر وجود الإنسان السوري.

الأفلام الوثائقيّة السوريّة.. ذاكرة الثورة

هيثم حسين

حملت العدسة وقائع الثورة السورية و همومها، و وثقتها على شكل صور رقمية حملت اعترافات شهود وضعوا بصمتهم على حوادث وانعطافات خلال سني الثورة ومراحلها، فالمستجدات والظروف الراهنة فرضت على الفنون ووسائل الإعلام سيغا جديدة للتعاطي معها، بالتقاط اللحظات الفارقة التي تنقل الصورة إلى الآخر.

وتبرز الوقائع أن الثورة السورية حملت في طياتها ومراحلها ثورة سينما وثائقية وتسجيلية أيضا وذلك بدخول الإنترنت وكاميرا الهاتف المحمول على سعيد الصورة الموثقة، وقدمت مخرجين من قلب الحدث، حاضنوا تجارب فنية وسينمائية مهمة لتوثيق بعض أحداث من الثورة.

يقول المخرج والسيناريست السوري محمد منصور إنه أنجز عن الثورة السورية حوالي ثلاثين فيلما وثائقيا بين عامي (٢٠١١-٢٠١٣). و يمثل الفيلم الوثائقي بالنسبة له أرقى أنواع العمل التلفزيوني أو البصري، وحالة بحث تاريخي عن الحقيقة، حتى لو كان هذا التاريخ هو مجرد لحظة.

فن الشارع

و حول مرجعيّة الأفلام التي أنجزها عن الثورة السورية يقول منصور: «مرجعياتها الأساسية مرتبطة بواقع الثورة الإعلامي واللوجستي. فلأول مرة يمنح نظام كل وسائل الإعلام من تغطية أحداث عاصفة تمرّ بها بلاده على هذا النحو».

والحصار الإعلامي غير المسبوق -كما يقول منصور- خلق مرجعية أساسية هي استخدام فن الشارع، كاميرا رجل الشارع، وتصوير رجل الشارع، والتعبير عن إحساس رجل الشارع».

ويقول منصور «صوّرت بعد عامين من الثورة فيلما بعنوان «الخوف من الثورة»، في منطقة سلقين بريف إدلب.

أردت أن أقول خلاله إنه حتى في هذه المنطقة التي تسكنها أغلبية سنّية و ليس فيها تنوّع طائفي، وهي في قلب منطقة محرّرة وتحت سيطرة الجيش الحرّ، هناك من لا يزال يخاف من الثورة، ولم يفهم معنى أن التغيير له ضريبة باهظة الثمن».

وفي فيلم «مَن قتل الحسين» يروي منصور العلاقة بين قرية سنية «بنش» وقرية شيعية «الفوعة»، و يناقش «كيف اتّخذت هذه العلاقة منحى حادّاً بعد الثورة دون أن أجمّل الأشياء».

تيار سينمائي

ومع ضعف الإمكانيات الإنتاجية، ظهرت مؤسّسة «بدايات» لتدعم عددا من الأعمال و تنتجها.

و يعلل القائمون على المؤسسة توجهها بضرورة إنتاج صورة تقارب حجم التضحيات وتصور الواقع وتوثق له وللتاريخ، وتدعم البحث عن لغة سينمائية لطرح الأسئلة الصعبة التي تبدأ بالفن ولا تنتهي بالسياسة.

وتطمح «المؤسسة إلى أن تكون جزءا من تيار سينمائي سوري يعبّر عن التجارب الجديدة والمخاضات الفنية التي تشهدها الساحة الثقافية في ظل التغيرات الكبرى التي تعيشها المنطقة من خلال لغة سينمائية وثائقية، تُساءل الواقع بقدر ما توثقه، وتنحاز للفن في مواجهة البروباغندا، وللناس في مواجهة الحكام، وللثورة في مواجهة العطالة».

ومع ازدياد نتاجات الأفلام الوثائقية قرر عدد من المشتغلين في هذا المجال إطلاق «مهرجان سوريا الحرة السينمائي».

و يقول حسين مرعي -و هو أحد المشرفين على المهرجان- إن «منع وسائل الإعلام العالمية من دخول سوريا حتّم على الشباب السوري الثائر إيجاد بديل غير رسمي ينقل صوته وصورته إلى خارج الحدود».

وأنتج الشباب السوري خلال سنتين ونصف من عمر الثورة العشرات، بل المئات من هذه المواد التي تصلح بمجملها كوثائق على لحظة فارقة في حياة سوريا، تؤسس فيما بعد لمشروع فنّي ثقافي مغاير، فيما لو جُمعت هذه المواد وحُفظت على اعتبار أنها نتاج فنّي ثقافي إنساني يوثق حقبة ثورة كرامة عُمدت بالدم.

من خلال استعراض بعض التجارب، سواء الاخراجية أو الانتاجية، يدرك المتابع أن الأفلام الوثائقية السورية تظل أمام امتحانين عسيرين: امتحان الواقع و الفن معا، و إلى أي درجة يمكن أن تخلص لهما و تمنح متلقيها المتعة في واقع ينضح بالأسى و الإيلام، و الإجابة عن ذلك في طور التهيئة و التبلور لأن الامتحان مستمر و متجدد و لم ينته بعد.

سجن حلب: مرضاً أو اعداماً أو قصفاً

يُحشر السجناء في غرف صغيرة مظلمة، بلا ماء أو كهرباء. يُطعمون في الحدود الدنيا للبقاء على قيد الحياة، وتفتك بهم أمراض مثل الجرب والتدرن الرئوي. وبين حين وآخر، تهز مبنى السجن قذائف مدفعية تنفجر على مقربة منهم لتذكيرهم بالحرب المستعرة خارج أسوار السجن. هؤلاء هم نزلاء سجن حلب المركزي، الذين يجدون أنفسهم بين نارين. وتحاصر قوات المعارضة مبنى السجن منذ خمسة اشهر مؤكدة تصميمها على تحرير أكثر من ٤٠٠٠ نزيل. وحاول مقاتلون اقتحام السجن في عمليات انتحارية بسيارات ملغومة مرتين، وهم يمطرون المجمع بالقذائف. وكثيرا ما يشتبكون مع منات الحراس الذين يتحصنون في الداخل. وتوفي أكثر من ١٥٠ سجينا منذ بدء الحصار، إما نتيجة القصف أو بسبب المرض والحرمان من الدواء أو اعدامهم على ايد الحراس. كما تؤكد فصائل معارضة. واصبح حصار السجن رمزا لحرب الاستنزاف القاسية التي آلت اليها سوريا في العام الثالث من الانتفاضة.

ظروف مزرية

يقع سجن حلب المركزي على طريق سريع، يبعد حوالي ٦ كلم شمالي مدينة حلب. وشن مقاتلو المعارضة هجومهم الأول على السجن في نيسان (ابريل) الماضي لا لتحرير النزلاء فحسب وانما لاجتثاث جيب ما زال يحتفظ به النظام وسط احياء تسيطر عليها المعارضة. يضم السجن ٤٦٠٠ نزيل بينهم ١٥٠ امرأة، وهم خليط من المجرمين العاديين ومقاتلي المعارضة وناشطيهم ومجرد متعاطفين. كما أكدت الشبكة السورية لحقوق الانسان. وقالت الشبكة إن نحو ١٣٠٠ سجين أنهوا محكومياتهم لكن السلطات ترفض الافراج عنهم.

وانتشرت الأمراض بين السجناء، بما في ذلك ٢٠٠ اصابة بالتدرن الرئوي بينها ٧ وفيات. وقالت الشبكة السورية لحقوق الانسان إن التقيؤ والاسهال والتسمم حالات شائعة بين المعتقلين، لأن خزانات الماء لم تنظف منذ أشهر، وهي مليئة بالديدان والقاذورات. وقال الناشط محمد سعيد إن نزلاء السجن يعيشون في ظروف مزرية. واضاف في حديث لصحيفة نيويورك تايمز على سكايب، "الحراس يقدمون لهم القليل من الطعام ويبيعونهم الدواء بسعر فاحش يبلغ ١٠ دولارات للحبة المسكنة".

محاولات فاشلة

منذ بدأت قوات المعارضة حصارها في نيسان (ابريل)، شنت هجمات متعددة في محاولة للسيطرة على السجن. وفي ايار (مايو) استطاع مقاتلون غالبيتهم من جماعة احرار الشام الاسلامية اختراق السور بتفجير سيارتين ملغومتين في آن واحد، واشتبكوا مع قوات النظام داخل اسوار السجن إلى أن تدخل الطيران لاجبارهم على الانسحاب. وفي آب (اغسطس)، فجر عناصر من جبهة النصرة سيارة ملغومة أخرى قرب السجن، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق السور.

وما بين هذه الهجمات، يقصف مقاتلو المعارضة مبنى السجن بالصواريخ أو قذائف الهاون بين حين وآخر.

وأكد قائد احدى المجموعات التي تشارك في الحصار حرص المقاتلين على تجنيب السجناء مخاطر القصف. وقال ابو ثابت، قائد كتيبة سيوف حلب، "نحن نعرف أين مكان المعتقلين، وأين جنود النظام، ولدى بعض النزلاء هواتف خلوية ويتصلون مع المقاتلين في الخارج". لكن المرصد السوري لحقوق الانسان أفاد بمقتل نزلاء نتيجة القصف أكثر من مرة رغم هذا الحذر. وقال القائد الميداني ابو ثابت لصحيفة نيويورك تايمز، "السجن محاط من كل الجهات. لكن مقاتلي المعارضة لم يتمكنوا من السيطرة عليه لأن لدى جنود النظام كميات كبيرة من الذخيرة التي تكفيهم مدة طويلة".

بالمروحيات

وقال مسؤول في النظام السوري إن قواته المحاصرة تتلقى امدادات رغم الحصار، من دون أن يوضح كيف. لكن المعروف أن النظام يرسل امدادات إلى قواعده المحاصرة بالقائها من المروحيات.

وبعد مفاوضات مديدة جرت بوساطة الصليب الأحمر الدولي، بدأ مقاتلو المعارضة في تموز (يوليو) يسمحون للهلال الأحمر السوري بإيصال المواد الغذائية إلى السجن. ونقل الصليب الأحمر إلى السجن زهاء ٥٠٠٠ وجبة خلال شهر رمضان.

ويقوم الصليب الأحمر حاليا بإيصال مواد غذائية إلى السجن مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع، رغم أن المقاتلين لا يسمحون إلا بالوجبات الجاهزة، لأنهم لا يريدون أن تكتنز قوات النظام في الداخل مواد غذائية لجنودها فقط.

وقال رئيس الهلال الأحمر السوري خالد عرقسوس في اتصال هاتفي مع صحيفة نيويورك تايمز من دمشق، "ان الوجبات تؤكل فورا، وهي بالكاد تكفي المعتقلين والحراس، ولا شك في أن الوضع داخل السجن سيء". وقال مدير المرصد السوري لحقوق الانسان رامي عبد الرحمن، "ان الظروف الانسانية في السجن كارثية، ونأمل بأن لا تنتهي العملية التي تهدف إلى تحرير المعتقلين بقتلهم".

نساء بين سقف وسماء

د. سماح هدايا

"فرق كبير بين أن تنظر إلى سقف وأن تنظر إلى أفق. السقف قفص، والأفق حرية". ليس تحليلا في واقع المرأة بعد الثورات وشرح دورها وأهميته، لكن الفكرة هي إضاءة نقطة في غاية الأهمية تتمثل في الطاقة العقلية الثورية التي أنتجتها الثورات بحراك المرأة التحرري الثوري على الأرض... في سياق المشروع الثوري التحرري. فالقوة التي حملتها المرأة، بالتحديد، في الثورة السورية، يكمن في تجسيدها الحي الواقعي والتزامها المخلص للمبادئ الجوهرية التي خرجت الثورات لأجلها، وهي الحرية والكرامة والعدالة.

لعل من أهم الإنجازات التي قدمتها المرأة السورية للثورة على الأرض هو تجذير مشروع الحرية والديمقراطية والكرامة، إذ حملته، يوميا بوعي ذاتي وبصدق والتزام، على الرغم من أوجاعها وآلامها الفردية والأسرية والعائلية والمجتمعية، وسارت به فوق درب الكفاح للحرية، من خلال خروجها الجريء على سطوة محرمات الجهل المذلة التي كانت ومازالت تعمل على ابتزاز إنسانيتها وتهميش دورها وتكريس تبعيتها المذلة. محرمات يشرعها القائمون بخدمة الطغيان، وفق أوامره ومصالحه وينشرها أعوانه من كهنوت الدين والفكر والقانون في المؤسسات الدينية والثقافية والتشريعية والتنفيذية التي تضع يدها على العرف الاجتماعي والمزاج السياسي والمناخ الفكري، وتدير سير العلاقات الاجتماعية والسياسية. فتعزل المرأة، بقصد، عن الحراك النهضوي والثوري التحرري والانتاجي المبدع، لكي تخلق شرخا في المجتمع يمنع تآلفه ونموه بما يخدم مصالح القوى السلطوية. وقد برز تأثير ذلك واضحا في الثورة عبر ممارسات كثيرة لتقييد المرأة وكبح أدائها الثوري بهدف إضعاف الثورة وإسقاط مشروعيتها وإضعاف حاضنتها.

قد أخذ التحريض على عمل المرأة الثوري بتحريم خروجها في التظاهرات والمسيرات عناوين دينية مجزوءة، مستمدة من ثقافات بائدة جاهلة قاصرة، مثل عدم مخالفة ولي الأمر ووجوب طاعته، ومثل قوانين المكروه والمحرم... ومثل مفهوم درء الأذى والحفاظ على الأعراض والشرف، ومثل تجنب المفاسد. لأن السلامة وحماية المصالح هما الأساس، ومثل لزوم البيت صونا للشرف وتجنبا للمعاصي، تدور حول العجز والضعف...وهو ما استحوذ على الخطاب الديني الرسمي وغير الرسمي الذي تدعمه سلطة النظام وعصاباتها، بشكل منظم سياسيا وثقافيا، على نحو مباشر سياسيا وأمنيا وقانونيا، ونحو غير مباشر، ثقافيا واجتماعيا، بقيادة مختلف أجهزة الدولة الاستبدادية القمعية.

جاء الموقف الثوري للمرأة السورية، على الرغم من شدة القبضة الغليظة التي تحكم المرأة ومصيرها، معاكسا لتيار تدجينها وترويضها وترهيبها باسرارها اليومي المذهل على دعم مشروع الثورة ومشروعيتها، يحمل قدرا كبيرا من الشجاعة والبطولة، ويفعل مبادئ الثورة على الأرض، في الواقع والتصور الخلاق، مقدما دروس التضحية والمقاومة والبذل، يمد مشروعها بطاقة هائلة تدفعها نحو الاستمرار والتحقق....

فعندما صمدت المرأة السورية على الأرض في مواجهة عنف شديد ووحشي مارسه ضدها نظام الأسد وعصاباته المستعرة، بالهجوم عليها عن طريق الاغتصاب والتعذيب والاعتداء والاعتقال والقتل والتشريد وذبح أطفالها وتجويعها وإذلالها واستغلال أمومتها ...كانت تقدم أمثلة في الصمود والتفاني والإخلاص لمشروع وطني سياسي إنساني نهضوي. فقاومت حالات انتهاكات شديدة ، لها وقعها الشديد وتأثيرها السلبي المدمر في مجتمع رجعي ينتفض في كثير أماكنه ذكورية عمياء، حين يجري التعدي على المرأة باسم العرض والشرف واسم العائلة والأخلاق والحشمة. وكانت تخوض خضم هذا التردي الاجتماعي والسياسي، بقوة أصلب من الرجل وأشد في محاربة منظومة الاستبداد والقهر، وتقدم فعلا وطنيا سياسيا في غاية الأهمية يتمثل في توطيد مشروع الحرية والكرامة والنضال تحت أقسى الظروف.

ومع أن عمل المرأة السورية تطور على الأرض، تبعا لتطور وعيها وتضاؤل جهلها واحتياجات واقعها من خلال مشاركتها بالتظاهرات وتنسيقها وقيادتها أحيانا. أو من خلال عملها في توثيق الانتهاكات المختلفة الممارسة ضد الثورة وضد المدنيين وتصوير الحراك والأنشطة الوطنية وإعداد الأفلام التوثيقية. وفي الإعلام والتدوين والصحافة. وفي الحراك الحقوقي والفكري السياسي. وفي قلب المعركة مع المقاتلين...في الميدان مقاتلة ومسعفة ومغيثة وراصدة للمعلومات، فان مشاركتها السياسية في صفوف المعارضة السياسية التي تمثل الحراك السياسي للمعارضة والثورة جاء ضعيفا جدا، بسبب تهميشها المتعمد واقصائها من قبل رجال المعارضة ورموزها التقليدية، أو جرها إلى خشبة التمثيل والظهور الشكلي التجميلي في ظلمة منطق المحاصصات الاثنية والحزبية والفئوية. ولعب قصور المعرفة الفكرية والسياسية أو تضخم الترجمات النسائية التقليدية دورا كبيرا في إضعاف دور المرأة سياسيا في صفوف المعارضة. خصوصا عندما أصرت أن تضع نفسها في تنافس على المصالح الضيقة والتبعيات غير النزيهة لمنظمات دولية لها أجندات دخيلة ومصالح سياسية. وعندما حولت معركتها من معركة لأجل الحرية والعدالة والكرامة إلى معركة صراع ضحل ضيق بين فرق متقاتلة على المكاسب من العلمانيين والإسلاميين. فخسرت مثل كثيرين في المعارضة شرف المعركة الجارية للإطاحة بالطغيان الأسدي وخلع منظومته الاستبدادية تحت حمى المصالح.